التحدي

وقفا أمام بعضهما بتحدٍ.. نظر الأول في عين الثاني مباشرةً وقال له بسخرية:

ـ أنت السبب! لن يتحمل أحد إثم ما اقترفت إلا أنت.. ثم علا صوته فجأة وقال بحدّة: أنت آثم.. هل تسمعني؟!.. المحصور آثم...

مرت لحظات قصار لم ينطق أحدهما ببنت شفة.. ومكثا ينظران إلى بعضهما في تحدٍ إلى أن عاد الأول وقال:

ـ طبعاً لن ترد.. كيف ترد وتفتح فمك هذا.. وهو الذي كان مشغولاً بالقبلات بالأمس؟.. كيف ترد بلسانك هذا.. وهو الذي ذاق طعم الحرام؟.. كيف ترد بحنجرتك تلك.. وهي التي تجرَّعت طعاماً ذا غصةٍ وشراباً لم تكد تسيغه.. كيف ترد بـ..

قاطعه صوت الثاني بأسى: ـ كفى أرجوك! كفاك إشعالاً لمشاعر الندم ـ كفاك.. إيقاداً للهيب المرارة.. كفاك أرجوك!..

عاد الأول ليقول بحدة: لا! لن أكف.. يتحتم عليَّ أن

أجعلك تندم.. يجب أن تشعر بالندم عما ارتكبت.. بل إن الندم وحده لا يكفي.. يجب عليك أن تعزم ألا تعود إلى ما كنت عليه أبداً.. أبداً.. هل تسمعني؟..

رد عليه الثاني في صوت خافت وكأنه يخشى أن يسمعه أحد في الحجرة الخالية إلا منهما: نعم أسمعك جيداً.. ولكن.. ولكنني..

ثم سكت برهة وعاود كلامه بعد تردد وقال: ولكنني في الحقيقة..

سكت مرة أخرى.فقاطعه الأول بحدّة أشد قائلاً: ولكنك ماذا؟!.. انطق.. تكلم.. أفصح عما بداخلك..

قاطعه الثاني بلهفة وكأنه وجد الكلمة التي كان يبحث عنها: ولكنني لا أعرف ما الذي بداخلي.. هذه هي المشكلة... حقاً لا أعرف...

عاوده الأول بحدّة مرة أخرى قائلاً:

أيّاً كان.. أنت تعرف تمام المعرفة أنك مذنب.. فاسق.. أنت تعلم جيداً ما اقترفت يداك.. لا تستخدم عدم معرفتك بنفسك كحجة تقنع بها نفسك ويطمئن لها قلبك.. لا!.. أنت المسؤول.. أنت المسؤول.لا أحد غيرك..

تبدل صوت الثاني وقال بصوتٍ باكٍ: أجل.. أنا مخطئ..

قل ما شئت فلن أجادلك.. ولكنك لا تستطيع أن تنكر أنك أيضاً شريكي في هذا الجُرم.. ألم تكن معي وقتها؟ بلى كنت.. لماذا لم تنصحني؟ لماذا لم تأخذ بيدي إلى طريق آخر.. لماذا؟!..

قال له الأول في حيرة: ولكنني فعلت.. ألا تذكر حينما قلت لك إن ذلك الطريق الذي تسلكه سيودي بك إلى الهاوية.. ألا تذكر ذلك على الإطلاق؟!..

قال له الثاني بعناد: بلى أذكره.. ولكنني أيضاً أذكر الطريقة التي نصحتني بها.. لقد كنت تهزأ بي.. كانت كلماتك ظاهرها النصيحة وباطنها التشفّي..

قاطعه الأول بسرعة: لا! لم أهزأ بك.لقد صور عقلك المريض لك هذا.. لم أكن لأهزأ بك أبداً.. كيف أفعل بالله عليك وأنت رفيقي الوحيد في هذه الحياة.. صدقني كنت أنصحك فقط.. وأحاول إرشادك.. لكنك لم تذعن...

تحول صوته إلى الحِدة مرة أخرى وقال: لمْ تذعن.. لم تأخذ بما أقول.. بل تماديت فيما أنت فيه من ضلال.. فوليت عني مستكبراً.. لقد استولى الكِبرُ على فؤادك فأغشاه.. وأحاط الغرور بعقلك فأدماه..

رد عليه الثاني وقد بدا متوتراً: ماذا أفعل إذاً؟!.. أرأيت؟

أنت السبب الرئيسي في أن أتمادى في الضلال.. فأنت تجعلني قانطاً من التوبة.. يائساً من الرحمة.. ففي كل مرة تقول لي: لقد استولى الكبر على فؤادك فأغشاه.. وأحاط الغرور بعقلك فأدماه...

تبدل صوته إلى مرارة لا مثيل لها وقال بصوت يقاوم الدموع بصعوبة وخرج صوته محشرجاً: أنت! أنت السبب في كل ما أعانيه.. فلولاك ربما تكون قد سنحت لي الفرصة في التوبة والإنابة..

قاطعه الأول مشدوهاً: أنا؟!.. لا تلقِ اللوم عليَّ!.. أنت تضحك على نفسك.. أنا لم ولن أجبرك على شيء لا تريد فعله.. فلا قدرة لي على ذلك فأنت مالك أفعالك وحدك.. كابحها وحدك.. ستحاسب عليها وحدك.. وأنت الآن في مفترق الطرق. فإما أن تقبل نصيحتي وتعود إلى رشدك.. وإما أن تواصل ما أنت فيه من ضلال وحينئذٍ لا تلومنَّ إلا نفسك.. اختر الآن وأنت بكامل قواك العقلية ولك الحرية المطلقة...

مضت لحظات صمتٍ ثقال.. أخذ الغريمان ينظران في أعين بعضهما وبدت علاماتُ الحيرة والتفكير على ملامح الثاني في حين امتزجت ملامح الأول ما بين الصرامة والأمل.. وطالت

لحظات الصمت والتفكير.. وطالت.. وطالت..

وفجأة فُتح باب الغرفة.. وخرج منها الأول وقد بدت عليه ملامح الارتياح.. خطا خطوتين ثم توقف.. ثم نظر خلفه إلى داخل الغرفة الخالية وتأملها مرة أخيرة.. أدار بصره في الغرفة التي كان هو بداخلها منذ لحظات.. ثم توقف بصره على تلك المرآة العتيقة الملقاة بإهمال في ركن الغرفة.. نظر إليها بإمعان وأسفرت شفتاه عن شبه ابتسامة وشبه ارتياح وتحدٍ... .